ضيعة دار تينجتون

ومدرسة التربية التجريبية بها

بقلم الأستاذ عبد العزيز أمين

عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

قال لى أستاذى : وإذاً فأى المدارس تريد أن تزور الآن ، وفى ظنى أنك قد زرت معظم مدارس المدينة والضاحيات المجاورة ؟ قلت : يحسن بى أن أعود إذا إلى المدرسة المركزية (Central School) فى بليموث لأنى أرى فى نظامها ومنهجها وطرق الدراسة بها ما أحسبه جديرا بالملاحظة والدرس . فالتفت إلى وقال : وهل زرت مدرسة دار تينجتون ؟ قلت : بالرغم مما سمعته وأسمعه كل يوم عن مدرسة دار تينجتون ، وتجارب التربية التى يقوم بها مديروها ، والحرية المطلقة التى يتمتع بها تلامذتها ، ومحاسن نظامها ومثالبه ، وما سمعته من ناظرها فى الراديو منذ مدة ، إننى لم أزرها حتى الآن ، وبودى لو أتيحت لى الفرصة ؛ قال : أيكفيك أسبوعان هناك ؟ قلت : بها ونعمت . ثم قابلته بعد ذلك فأخبرنى أن المدرسة على علم بأمر زيارتى التى ستبدأ من يوم الاثنين ١٨ من فبراير .

غادر القطار مدينة إكستر الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم الأحد ١٧ من فبراير حيث وصل إلى محطة توتنس «Totnes» الساعة الرابعة ، وكان علىّ أن أظل هناك حتى الساعة الرابعة والنصف حين تقوم سيارة عامة من المحطة قاصدة قصر ضيعة دار تينجتون (Dartington) ؛ ولكن حسن الحظ يسّر لى سيارة خاصة يجريها صاحبها بين الضيعة والمحطة من حين لآخر ، حين يجد العدد الكافى من الركاب . همست فى أذن صاحب السيارة وسائقها قائلا : أقصد « فندق الفجر » فأومأ برأسه إيماء الواثق . واندفعت السيارة فى طريقها إلى الضيعة تقف بين الفترة والفترة لانزال بعض الركاب . ولم يمض نصف ساعة حتى وجدتنى الراكب الوحيد بعد أن وصلت السيارة إلى غايتها . فسألت السائق : أين إذاً فندق الفجر ؟ فقال : أوه ! فندق الفجر ؟ لقد مررنا به منذ مدة ، وبيننا وبينه الآن

مسافة طويلة ، ومعك حقيبة يخيل إلى أنها ثقيلة ، ألا تنتظر حتى أعود بك فى السيارة ؟ قلت : ومتى ؟ قال : الساعة السابعة ؟ قلت : هوّن على نفسك ؟ وصف لى الطريق !

حملت حقيبتى ورجعت من حيث أتيت ، وكنت أحسبنى الوحيد فى ذلك الطريق الذى أجهده ثقل حقيبته ، ولكنى وجدت زميلا يعانى ما أعانى . كان ذلك الزميل تلميذا فى الثامنة من عمره ، عائداً إلى مدرسته — التى لحقتها عن بعد — أعنى مدرسة دار تينجتون ، بعد أن أمضى إجازة الأسبوع مع أسرته ، ولم تكن حقيبته أخف من حقيبتى ، وعلى رغم ذلك لم تبد عليه علامة إعياء أو ملل .

وانتهى بى المطاف إلى الفندق ، وهناك استقبانى سلوقيان استقبال الصديق لصديق لم يره منذ مدة ، وقادانى إلى مدخل الفندق حيث جاء صاحبه محييا :

لقد استطعت أن تعرف الطريق ؟

نعم ، لقد اهتديت اليه بعد أن ضللته ، وكانت تلك الحقيبة حملا متعباً .

ثم أخذنى إلى حجرة الاستقبال ، وبعد تناول الشاى سألنى :

أظنك قدمت لزيارة المدرسة ؟ قلت : هو كذلك ، وما الذى حملك على هذا الظن ؟ قال : إننا نستقبل غالبا زائرين أجانب ووطنيين ممن يهتمون بشئون التربية والتعليم . وغايتهم زيارة تلك المدرسة التى اشتهرت بنظامها الغريب ، وتجاربها فى التربية .

قلت : وهل لك أن تعطينى فكرة عامة عن إدارة تلك المدرسة ونظامها ؟ وهنا بدأ صاحب الفندق يقول : نعم ، لى ثلاث أبناء يذهبون إلى تلك المدرسة . . . .

ولكن مهلا أيها القارىء . فلن أقص عليك ذلك القصص حتى أحدثك أولا عن ضيعة دار تينجتون ، والمدرسة وكيف تأسست .

لعلك فهمت الآن أن مدينة (تونتس) الصغيرة تقع فى اقليم ديفون وأن قرية دار تينجتون تبعد ثلاثة كيلومترات عن تلك المدينة . أما مساحة الضيعة فتنيف على ألف الفدان . ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع حين كانت أشبه بغابة موحشه منها بمزرعة نضرة . وقد ملكها أحد اللوردات الانجليز ، وأقام فى وسطها وعلى تل مرتفع منزله الفخم الذى لا يزال حتى الآن يحدث بمجد مضاع ، وعز

دائر؛ ويطلق عليه اسم: منزل اللورد «The Manor House» أو «Dartington Hall».

ظلت هذه الضيعة (Estate) خلال عشرة قرون تستغل فى الصيد والقنص، وركوب الخيل والسباق، يسكنها اللورد وحاشيته، وتتناولها يد مالك بعد آخر، وتنتقل من أسرة إلى غيرها حتى وصلت خلال الحرب العظمى الى حال من الاهمال دعت صاحبها أن يعرضها للبيع.

كان مستر ويلارد ستريت قنصلا لأمريكا فى الصين وقد حدث به منيته إلى ان يشترك فى الحرب العظمى حيث قتل كما قتل ملايين غيره، سنة ١٩١٨ فى باريس. خلف وراءه ثروة هائلة لزوجه وأولاده الثلاثة، وكان قد أوصى أن يخصص نصيب كبير منها لشئون التعليم وتجارب التربية. كما أوصى أن يبنى منتدى كبير لطلبة جامعة كورنيل بامريكة.

وحدث ان التقى مستر المهيرست (Elmhirst) الانجليزى بمسز ستريت الأرمل فى أمريكة، ووجدا من توافق مشاربهما، واهتمامهما المشترك بحركات التربية ومدارسها، وشئون التعليم فى الممالك المختلفة ما شجعهما على ان يتزوجا، وأن يتعاونا معا على بحوثهما وتجاربهما فى التربية. عاد مستر المهيرست تصحبه زوجه (مسز ستريت سابقا) الى انجلترا ليبحثا عن مكان يصلح لمشروعهما فى التربية التجريبية. وكان أن وفق الزوجان الى ابتياع ضيعة دارتينجتون سنة ١٩٢٥. وكانت الضيعة كما ذكرت عبارة عن غابة مهجورة، وأدغال واحراج موحشة، مملوءة بالبرك والمستنقعات، ويجرى وسطها نهر «دارت» الشهير.

لم يكن من الميسور حينئذ إنشاء أى معهد للتربية قبل أن تحول الغابة ضيعة ذات زرع تأوى اليها أفئدة من الناس.

وأخشى أن يطول بنا الحديث إذا تعرضت لوصف الضيعة كما هى الآن، ولكن يكفى أن أذكر انها لم تعد بعد غابة موحشة وانما هى معامل ومزارع، حدائق ومشاتل، مصانع للنسيج وقطع الأخشاب، ومدارس لتجارب التربية وتهذيب طرق التعليم.

ولعلك تجد فى الجدول الآتى والصور أيضا ما يغنى عن الافاضة فى الوصف.

ولنعد إذا إلى حديث المدرسة :

تقع المدرسة — أو المدارس لأنها فى الحقيقة ستة عشر بناء — فى هذه الضيعة « Estate » أو ما يطلق عليه ، فى العرف اسم (دائرة) . وقد بدأت أولا بطفل واحد هو البنت الصغيرة لمستر ومسز المهيرست تحت عناية والديها ومرشدة خاصة (Nurse) . وقد رأى والدا الطفلة أن يهيئا لها بيئة اجتماعية بجانب بيئتها الطبيعية ، فاستدعيا بعض أولاد العمال فى الضيعة والقرى المجاورة ، ليرافقوها ويشتركوا معها فى ألعابها وتربيتها . ولكن ما ذاع الخبر حتى توافر عدد من الأطفال كاف لانشاء فصل تحت إشراف مرشدة مدربة . وقد كان ذلك الفصل النواة الأولى لتلك المدرسة الحالية .

تسير المدرسة — كما هى الآن — على نظام التربية المشتركة « Co-education » فالبنون والبنات يعيشون فى مكان واحد ، ويشتغلون جنبا لجنب تحت إشراف مشترك . وهم أشبه بافراد أسرة واحدة منهم بتلامذة مدرسة . وليس للجنسية أو الدين أو المهنة أى اعتبار فالكل سواء . وهناك أطفال أمريكيون ، وهنود ، وانجليز ، وفرنسيون ، وألمانيون . كما ان فيهم اليهودى والمسلم والمسيحى . وبينهم أبناء السفراء والوزراء وكبار الفلاسفة والمربين ، كمستر بيرتراند رسل — له طفلان هناك — والسيكولوجى الشهير فرود « Freud » ، والكاتب الذائع الصيت الدوس هكسلى ، كما أن بينهم أولاد العمال والزراع . ويلتحق الطفل بالمدرسة فى سن الثانية ، ويظل بها حتى الثامنة عشرة . وكل التلاميذ — ما عدا بضعة منهم — « داخليون » ، يعيشون كاخوة وأخوات تحت ارشاد واشراف إخوتهم وأخواتهم الكبار ، أعنى المربين والمرشدات .

ويسمى قسم الأطفال بين الثانية والرابعة « Nursery School » أو مدرسة الحضانة ، كما يسمى قسم الأطفال بين الرابعة والسادسة أو السابعة روضة الأطفال « Kindergarten » ويطلق على كلا القسمين اسم المدرسة الابتدائية . أما القسم الأولى « Junior School (١) فيه أطفال تتراوح سنهم بين السابعة والحادية عشرة .

(١) نرى أن تسمى ال Junior School بمدرسة الدارجين

والقسم الأولى الراقى « Senior School » (١) به أولئك الذين تتراوح سنهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة . وقد وُجد من المناسب حينئذ إنشاء قسم ملحق بهذه المدرسة لاعداد مدرسين ومدرسات يتمرنون مدة ثلاث سنوات وفقا لطرق التربية والتدريس المتبعة فى هذه المدرسة ، وتحت اشراف استاذة (٢) استقدمت خصيصا من معهد فروبيل بكمبردج — وقد ذكرت لى انها كانت استاذة لبعض الطالبات المصريات بذلك المعهد .

وبالمدرسة الآن ١٥٠ تلميذا وتلميذة تحت عناية واشراف ٣٠ مربيا ومرشدة كلهم اخصائيون ومدربون . وناظر المدرسة « Mr. W. Curry » خريج جامعتى لندن وكمبردج ، وقد كان ناظرا « Cak Lane Public school » فى فيلادلفيا بأمريكة .

وقد ذكرتُ أن ما بالضيعة من معامل ومصانع ومزارع إنما يعمل بالتعاون مع المدرسة ، وقد أنشىء ليعطى تلامذتها الفرصة الكافية والبيئة الملائمة لتربية مواهبهم وتنشئة استعدادهم . والواقع أن الضيعة بإداراتها وفروعها المختلفة تعمل بالاشتراك والتعاون مع المدرسة نحو غاية واحدة .

ولا تعتبر النفقات المدرسية باهظة إذا وازنّاها بالنفقات المدرسية فى « Public Schools » مثلا ، فالتلميذ « الداخلى » يدفع ١٢٠ جنيها كل سنة فى المدرسة الابتدائية ، و ١٤٠ جنيه فى القسم الأولى و ١٦٠ جنيه فى القسم الأولى الراقى . هذا عدا مصاريف الكتب والنفقات الخاصة . على أن المدرسة تعنى أبناء الفقراء من المصروفات ، أو تتقاضى مقدارا ضئيلا .

وقبل أن أتعرض لنظام المدرسة وسير الدراسة فيها أشير مرة ثانية الى أن المدرسة « تجريبية » بمعنى أن النظام المتبع فيها لا يمكن أن يؤخذ جملة كأساس

---

(١) نرى أن تسمى مدرسة ال Senior School بمدرسة اليافعين

(٢) أبدت الاستاذة مارجريت إشروود (Isherwood) رغبتها فى بعث بعض الطالبات المصريات للدراسة والتمرن عندها (فى ذلك القسم الخاص) ، وقد كتبت إلى مكتب البعثات بلندن مشيرا إلى تلك الرغبة . وقد حدد يوم ٢٥ من مارس لزيارة الاستاذ محمد جمال الدين لذلك القسم.

صالح للتربية ، ولا أن تعتبر طرق التدريس فيها قضية مسلمة ثبتت صحتها .

ولنعد إذاً الى نظام المدرسة وإدارتها وما يسمى بالانجليزية « Dixipline » تتبع المدرسة فى نظامها وإدارتها القوانين الآتية :

(١) كل ما فى المدرسة من كتب وأدوات ومقاعد وأثاث ملك مشترك بين أفراد المدرسة — أو أفراد الأسرة كما يسمون أنفسهم — فليس لتلميذ مقعد خاص أو كتاب خاص أو درج خاص .

(٢) أى مكان فى الضيعة أو خارجها يصلح لأن يكون حجرة للدراسة : فالحقل أو مقطع الأخشاب ، أو الغابة ، أو معمل تربية الدجاج ، أو معمل الفخار أو ملعب التنس أو حجرة الألعاب الرياضية يصح أن يكون مكانا للارشاد والتثقيف .

(٣) ليس التلميذ ملزما بارتداء زى خاص ، فله أن يحضر الى مكان الدراسة — الحجرة مثلا — حافى القدمين ، أو من غير « جاكته » بثياب الحقل أو ثياب النوم .

(٤) ليس التلميذ مقيداً بجدول دراسة أو منهج تدريس ، أو مواد خاصة وإنما له الحرية المطلقة فى اختيار المادة أو المواد التى توافق ميوله ورغباته والتى يرى نفسه مستعدا بطبيعته لها . وله أن يحضر الى مكان الدراسة ، وأن يدعه فى أى وقت شاء .

(٥) يترك المدرس الموضوع الذى يتناول شرحه إلى أى موضوع آخر يقترحه التلاميذ ، فقد ينتقل من شرح حادثة تاريخية الى حجرة الألعاب الرياضية أو معمل نسيج السجاد اذا اقترح التلامذة ذلك .

(٦) للتلميذ أو التلميذة حرية التدخين ، أو استعمال الحاكى « الفونوجراف » أو الخروج من المدرسة لأجل الفسحة متى شاء أو شاءت .

(٧) يعد التلاميذ أسرة نومهم ، وينظفون حجراتهم ، ويمسحون أحذيتهم بانفسهم ويخدمون أنفسهم وقت الأكل .

(٨) لا تستعمل الألقاب فى مخاطبة المدرسين أو المدرسات . وإنما ينادى كل منهم باسمه الشخصى (لا باسم الأسرة كما هى العادة فى انجلترا) : وليم ، جورج . كاترين . . . . الخ

(٩) التعاون أساس العمل فى المدرسة . ولا يسمح بالمنافسة بين التلاميذ فى أى عمل مدرسى .

(١٠) للتلاميذ الحق فى إلغاء أى قانون مدرسى أو استبدال غيره به متى اتفقت الأغلبية على ذلك.

(١١) لا يتدخل تلميذ فى شؤون أى تلميذ آخر ، ولا يتعرض له بنقد أو لوم .

(١٢) لا عقاب ولا زجر ولا توبيخ ، إنما يجوز الانذار .

ولأعد إذاً إلى شرح تلك القوانين المدرسية — إن صح أن نسميها قوانين — وكيف تطبق فى المدرسة ، وأثرها ، وما لاحظته فى أثناء زيارتى :

(١) يرى مديرو المدرسة أن غريزة « حب التملك » تدعو غالباً إلى الطمع ، والجشع ، وقد تغرى الطفل بالسرقة . وقد يكون أثرها بين أطفال من طبقات مختلفة أشد وأدعى للحسد . ولكن شعور الطفل بأنه يملك كل ما فى المدرسة ، وأن له الحرية فى استعمال أى أداة من أدواتها يرضى هذه الغريزة من غير أن يثير فيه الرذائل السابقة ، وكذلك ينمى فى الطفل فكرة المحافظة على الشىء ، لا لأنه ملك له ، بلا لأنه مفيد للمجتمع الذى يعيش فيه ولذا يجب أن يحرص عليه .

(٢) الحقيقة أن فكرة المدرسة كبناء خاص لتلقى العلوم والمعارف ، فكرة « اتفاقية ، تواضعية » تواضع عليها العرف وأقرتها التقاليد ، وإلا فأى مكان يمكن الحصول فيه على المعرفة يصح أن يكون مدرسة . ولو فكر كل منا فى مجموع معارفه وتجاربه لوجد أن كثيراً منها مكتسب فى خارج جدران المدرسة لا فى داخلها. ولما كانت التربية الحديثة وطرق التعليم تحث على اكتساب المعرفة بطريق الخبرة والتجربة الشخصية ، والبحث والوقوف على أسباب ونتائج الظواهر الطبيعية المختلفة كان ضرورياً إذا أن تلجأ لدراسة كل شىء فى مكانه الخاص به متى أمكن ذلك .

وقد أدهشنى ما يعرفه الأطفال عن التجارب العلمية والعملية فى الفروع والمعامل المختلفة التى زرتها . قادنى طفل فى سن العاشرة إلى معمل تربية الدجاج

وهناك بدأ يشرح لى العمليات والخطوات المختلفة التى يقومون بها من ساعة وضع البيضة إلى أن تصبح دجاجة تبيض . شرح خبير مجرب و باحث مغرم يبحوثه مما جعلنى أخجل أمام وفرة خبرته على صغر سنه و كبر سنى .

يرى مدير و المدرسة أن الطفل الذى ينبغ فى مادة واحدة او فرع واحد — وإن لم يقدر مقدرة كافية فى الفروع الأخرى — أفيد وأنفع من ذلك الذى يعرف القليل فى كل موضوع ولا يجيد شيئاً . وتلك هى سياستهم فى التربية الحديثة ، وتجربتهم التى يرمون من ورائها إلى تهيئة الطفل لما خلق له .

(٣) الفكرة السائدة فى المدرسة هى « ترك الرسميات » والتصنع الذى لا يتفق مع طبيعة الأطفال . واتخاذ زى رسمى للمدرسة أو شارة رسمية — كما هو المتبع فى مدارس أبناء الأثرياء « Public Seks » — لا يتفق مع العمل الذى يقوم به التلاميذ ، ولا مع نوع دراستهم ، فهم غالبا فى الحقل او الغابة ، او البحيرة ، او المعمل التحليلى وكل هذه أماكن لا تحتاج إلى حسن هندام ، وأناقة ملبس . ذهبت مرة إلى أحد الفصول حيث وجدت أربعة تلاميذ مع أستاذ التاريخ يتناقشون حول نظام الجمهوريات الاغريقية . ويوازنونه بنظام الجمهوريات فى العصر الحاضر . كان التلاميذ بنتين وولدين فى سن السادسة عشرة تقريباً . جلس أحد التلميذين حافى القدمين على مقعد فى ركن الحجرة يلعب بقلم الرصاص ، ولكنه مع ذلك مشترك فى موضوع المناقشة وكانت إحدى التلميذتين مرتدية سراويل « بنطالونا » قصيراً ومن غير جورب . وبالرغم من هذا لم يكن هناك اى شعور بحالة غير معتادة . ثم قابلت التلميذ عينه مرة أخرى فى فناء المدرسة حافى القدمين .

(٤) يشير التقرير العام الذى أصدرته المدرسة أخيراً إلى أنه « ليس للمدرسة منهج دراسى معين ، إذ أن مديرى المدرسة لا يعتقدون بصلاحية أى منهج دراسى معين للأطفال . ومع ذلك فالتلاميذ يدرسون اللغة الانجليزية . والحساب ، والتاريخ . والجغرافية . والعلوم (طبيعة وكيمياء وميكانيكا) بحكم البيئة التى يعيشون فيها . والمدرسة مستعدة لتعليم أية لغة أجنبية لمن يشاء من التلاميذ . وجميع هذه المواد تدرس على أساس الارتباط المتبادل « Correlation » بين بعضها

والبعض الآخر متى أمكن ذلك ، والنشاط الذاتى والبيئة الصالحة هما العاملان الجوهريان لقيادة الطفل واستغلال مواهبه ، وفى مكان آخر يشير التقرير إلى أنه « ليس هناك حد معين للمقدار الذى يصح أنه يتعلمه التلميذ من أى مادة ، وللتلميذ أن يختار أية مادة وأن يدرس أى جزء منها ثم يدعها إلى مادة أو مواد غيرها يرى نفسه أشد شغفا بها ، وأكثر استعداداً لها . وليس معنى هذا أن تعيين مواد الدراسة شيء انتخابى (elective) ، ولكن الواقع أن النظام الدراسى مرن إلى حد أن منهج الدراسة يترك تعيينه إلى استعداد الطفل الشخصى . وقد يدعى بعض المعارضون أن من الضرورى أحياناً أن يتعلم الطفل بعض المواد التى لا يميل اليها . ولكن أمثال هؤلاء المعارضين يخلطون بين طرق الدراسة وبين رغبة الطفل أو عدم رغبته فى بعض المواد . إذا كانت طرق التدريس عقيمة والمادة غير مشوقة (Unintersting) كان طبيعيا أن يملها التلميذ ويعزف عنها .

وليس الغرض من التعليم أن يحصل التلميذ على مجموعة حقائق يستطيع أن يسردها متى طلب منه ، وإنما الغرض أن يصادف التلميذ مجموعة عقبات وصعوبات فى حياته التعلمية يمكنه أن يتخطاها . وللحصول على تلك الغاية يجب أن تكون العلاقة قوية بين ما يتعلمه التلميذ وما يحتاج إليه فى حياته العملية ونشاطه الذاتى . والنتيجة المباشرة لذلك أيضا هى رغبة التلميذ الاختيارية فى المحافظة على النظام ، والتعاون التطوعى فى أداء عمله وهما نقطتان أساسيتان للنجاح فى الحياة » .

للبحث بقية

عبد العزيز أمين

— ١٥ —

مر رجل من الفطناء برجل قائم فى طريق فقال : ما وقوفك ؟ قال : أنتظر إنسانا ، قال : يطول وقوفك إذاً .